

المشروع الصهيوني والنظام الدولي عبر مائة عام من وعد بلفور

د.نادية محمود مصطفى*

مقدمة:

في كلمات معدودة شديدة الوضوح والصراحة والخطورة لخص نتياهو، في كلمته أمام الجمعية العامة في دورة انعقادها الثانية والسبعون سبتمبر ٢٠١٧، وضع إسرائيل الراهن في المنطقة والعالم بعد مائة عام من وعد بلفور كالاتي^١: "نحن في خضم ثورة كبرى ثورة في وضع إسرائيل في أوساط الأمم هذا يحدث لأن الكثير من البلدان في جميع أنحاء العالم، استيقظت في النهاية إلى ما يمكن أن تفعله إسرائيل لصالحهم، تلك البلدان أضحت تدرك القيم الحقيقية: ثل ويرم بفت وشركات كبيرة مثل جوجل وانتل، ما أدركته وعرفته لسنوات أن إسرائيل هي دولة الابتكار، هي المكان للتكنولوجيا المتقدمة، والزراعة والمياه وأمن الفضاء الإلكتروني، وفي الطب وفي السيارات التي تقودها نفسها بذاتها، وسم ما شئت من تلك الابتكارات، تلك البلدان تدرك أيضا القدرات الاستثنائية لإسرائيل في مكافحة الإرهاب....

وقفت في العام الماضي على هذه المنصة، وتحدثت عن هذا التغيير العميق في وضع إسرائيل في جميع أنحاء العالم، وانظر ماذا حدث في غضون عام، مئات الرؤساء ورؤساء الوزراء ووزراء الخارجية قاموا بزيارة إسرائيل كثير منهم للمرة الأولى، ومن تلك الزيارات كانت زيارتان تاريخيتان، في مايو الرئيس ترامب كان أول رئيس أمريكي يضمن إسرائيل في أول زيارة له خارج الولايات المتحدة الأمريكية... وفي يوليو رئيس الوزراء مودي يصبح أول رئيس لوزراء الهند يقوم بزيارة لإسرائيل....

وكان من دواعي شرفي أن أمثل بلدي في ست قارات مختلفة، في سنة واحدة ست قارات، فذهبت إلى أفريقيا حيث وجدت المخترعين الإسرائيليين يزيدون المحاصيل الزراعية ويكافحون مرض الإيدز، وذهبت إلى آسيا حيث عمقنا علاقتنا مع الصين وسنغافورة، ووسعنا تعاوننا مع أصدقائنا المسلمين في أذربيجان وكازاخستان، وذهبت إلى أوروبا إلى لندن وباريس وبودابست حيث عززنا أمننا وروابطنا الاقتصادية، وذهبت إلى أستراليا وأصبحت أول رئيس وزراء لإسرائيل يقوم بزيارة حلفائنا العظام في ذلك العالم، وفي الأسبوع الماضي ذهبت إلى أمريكا الجنوبية وزرت الأرجنتين وكولومبيا وبعثت ذهبت إلى المكسيك وأصبحت -إن كنتم تصدقون- أول رئيس وزراء لإسرائيل يقوم بزيارة أمريكا اللاتينية....

.... بعد سبعين عامًا أضحي العالم يعانق إسرائيل وإسرائيل تعانق العالم....

.... ولكن للأسف وفيما يتعلق بقرارات الأمم المتحدة فيما يتعلق بإسرائيل فإن هذا الاعتراف البسيط في كثير من الأحيان غائب، كان غائبًا في ديسمبر الماضي عندما اتخذ مجلس الأمن قرارًا معاديًا لإسرائيل أرجع عقارب ساعة السلام إلى الوراء.... وبالتالي لا حدود لسخافات الأمم المتحدة عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، فأعلنت اليونسكو أن مرقد الأنبياء في الخليل من التراث العالمي الإنساني للفلسطينيين....

لا بد أن أكون جادًا للحظة، فعلى الرغم من تلك الحماقات والسخافات، وعلى الرغم من تكرار هذه الأحداث السخيفة المضحكة لكن فهناك تغيير بطيء وإن يكن طفيفًا، فإنه هناك علامات على وجود تغير إيجابي حتى في الأمم المتحدة.

*مدير مركز الحضارة للدراسات السياسية، أستاذ العلاقات الدولية المتفرغ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

^١ - كلمة نتياهو في الدورة ٧٢ للجمعية العامة للأمم المتحدة، تفريغ مروة يوسف نقلًا عن موقع الجزيرة مباشر على اليوتيوب، متاح على الرابط التالي: <https://goo.gl/CGXVQz>

سيادة الأمين العام أقدر حق التقدير ببيانكم أن حرمان إسرائيل من حق الوجود هو معاداة للسامية بشكل بسيط وخالص، وذلك أمر هام ولأنه ولفترة طويلة كان مركز معاداة السامية في العالم كان هنا في الأمم المتحدة، وفي حين أن الأمر قد يستغرق سنوات طويلاً، فإنني على ثقة أن الثورة في علاقات إسرائيل مع الدول فرادى ستجلى هنا في قاعة الأمم هذه، أقول هذا وأنا ألاحظ تغيراً ملحوظاً في مواقف أصدقائنا الرئيسيين وبفضل الدعم المطلق الذي لا لبس فيه من الرئيس ترامب، فإن هذا الدعم يتعاضد، فخامة الرئيس ترامب شكراً على دعم إسرائيل في الأمم المتحدة، وشكراً لك السفيرة نيكي هيري على دعمك وشكراً لك عن حديثك عن حقيقة إسرائيل.

... لا أحد كان أكثر جرأة ومباشرة من البيان الذي ألقاه الرئيس ترامب هذا اليوم حيث وصف الصفقة النووية مع إيران أنها صفقة محرجة، ولا يمكنني أن أتفق أكثر من ذلك معه، السبب في ذلك أن إيران تتعهد بتدمير بلدي كل يوم.... تقوم إيران بحملة غزو عبر الشرق الأوسط وتطور القذائف التسيارية لتهديد العالم بأسره، وقبل عامين وقفت هنا وشرحت أن الصفقة النووية الإيرانية لا تعرقل مسار إيران نحو تطوير أسلحتها النووية بل إنها في حقيقة الأمر تمهد السبيل لذلك...

... في الأشهر القليلة الماضية شهدنا خطورة قلة قليلة من الأسلحة النووية عندما تقع في أيدي نظام خارج عن القانون، والآن تصوروا مئات الأسلحة في أيدي إمبراطورية إسلامية إيرانية شاسعة وإلى أي مدى يمكن أن تصل تلك الأسلحة النووية في العالم...

فسياسة إسرائيل مع الصفقة النووية الإيرانية بسيطة جداً: غيروها أو ألغوها، ثبتوها أو اخروجوا منها، فالخطوة التالية للصفقة هي فرض عقوبات تشل إيران من أجل الحد من قدراتها النووية...

إن إسرائيل ستدافع عن نفسها مع القوة الكاملة لأسلحتنا والقوة الكامنة لقناعتنا، سنتصرف لمنع إنشاء إيران لقواعد عسكرية في سوريا من خلال القوات الجوية والبحرية والبرية، سنمنع إيران من إنشاء أسلحة قاتلة في سوريا ولبنان واستخدامها ضدنا، وسنمنع إيران من فتح جبهات إرهابية ضد إسرائيل عبر امتداد حدودنا....

أيها السيدات والسادة، تعرف إسرائيل أنها لا تقف وحدها في التصدي للنظام الإيراني، فنحن نقف جنباً إلى جنب مع أولئك - في العالم العربي - الذين يشاطروننا الأمل في مستقبل أزهى. فقد عقدنا سلاماً مع الأردن ومصر، ورئيسها الشجاع عبد الفتاح السيسي الذي قابلته هنا الليلة البارحة وأقدر دعم الرئيس السيسي للسلام، وآمل أن أعمل عن كثب معه وقادة آخرين في الإقليم من أجل الدفع قدماً بعملية السلام، فإسرائيل ملتزمة بتحقيق السلام مع كل جيراننا العرب بما في ذلك الفلسطينيين...

.... في هذا العام زيارة تاريخية وذكرى سنوية تاريخية، فإسرائيل لديها الكثير لتشعر بالامتنان له، فقبل ١٢٠ عام تيودور هرتزل عقد أول مؤتمر صهيوني لتحويل تاريخنا المأساوي لمستقبل زاهر من خلال إنشاء دولة يهودية، وقبل مائة عام قربنا إعلان بلفور من تحقيق تلك الرؤية من خلال الاعتراف بحق الشعب اليهودي في وطن قومي في أرضنا التاريخية؛ أرض الأجداد، وقبل سبعين عاماً دفعت الأمم المتحدة بتلك الرؤية للترجمة من خلال اعتماد قرار يدعم إنشاء دولة يهودية، وقبل خمسين عاماً قمنا بإعادة توحيد عاصمتنا القدس حيث حققنا انتصاراً أعجوبة ضد أولئك الذين حاولوا تدمير دولتنا. فحللم تيودور هرتزل أصبح واقعا، فعندنا إلى أرض الميعاد، وبنينا ديمقراطية مزدهرة، وغداً اليهود في كل أنحاء العالم سيتحفلون برأس السنة العبرية الجديدة بداية عامنا الجديد، فذلك وقت لإمعان النظر والتأمل والنظر إلى الوراء متسائلين ومتعجبين، ونستعرض الأعاجيب التي ولدت في ظلها أمتنا وتنتقل إلى الإسهامات الرائعة التي ستواصل إسرائيل تقديمها إلى كل الأمم. انظروا من حولكم وستلاحظون هذه المساهمات كل يوم؛ في المياه التي تشربونها/ والأدوية

التي تتناولها، والسيارات التي تركبونها، والهواتف التي تستخدمونها، وفي الأطعمة التي تتناولها. ترونها في ابتسامة أم أفريقية في قرية بعيدة نائية التي تشكر الابتكارات الإسرائيلية ولم يعد لازماً عليها أن تمشي ثماني ساعات يوميًا لتقل المياه إلى أطفالها، ترونها في عيون طفل عربي طار إلى إسرائيل لكي تجري له عملية في القلب تنقذ روحه، وترونها في وجوه الناس في المناطق التي ضربتها الزلازل في هايتي والنيبال من الدمار حيث منح هؤلاء المنقذون بفضل الأطباء الإسرائيليين، فكما قال النبي.. جعلتكم نورا للأمم تأتون بالإنقاذ إلى أقاصي الدنيا، واليوم وبعد ٢٧٠٠ عام على تلك المقولة تتعاضم قوة إسرائيل بين الأمم، فاليوم ضوء إسرائيل يغمر المعمورة ويأتي بالأمل والإنقاذ إلى كل أنحاء الأرض....".

هذه الكلمات لرئيس الوزراء الإسرائيلي اليميني أمام أكبر تجمع دولي وعالمي سنوي تعلن للعالم رسميًا وبغطرسة أن إسرائيل -بعلمها وقدراتها الاستثنائية- في خدمة الإنسانية، فقد أضحت في قلب العالم، وأن "الصراع العربي-الإسرائيلي" بين إسرائيل والحكومات العربية قد انتهى وتحول إلى حالة تحالف استراتيجي. ومن ثم فإن وعد بلفور بعد مائة عام قد حقق أهدافه. وإذا كان هذا الوعد، الذي دشنته قائدة النظام الدولي حينئذ بريطانيا العظمى التي كانت الشمس عندئذ قد بدأت في الغروب عن إمبراطوريتها، كان بمثابة صفقة بداية القرن العشرين، فإن تنياهو والسياسي، في ظل رعاية أمريكية-أوروبية يدشنان الآن صفقة بداية القرن الواحد والعشرين؛ أي صفقة تصفية القضية الفلسطينية بعدما تم من قبلها تصفية الصراع العربي-الإسرائيلي.

ومن ثم كان حديث تنياهو الأول من نوعه بعد أن تكرر من قبل، وفي مفاصل واضحة من تطور الصراع العربي-الإسرائيلي عسكريًا وبلوماسيًا، تصريحات القادة الإسرائيليين والغربيين، عما تهدف إليه إسرائيل وما وصلت إليه من إنجازات، بل وما تفعله تنفيذًا لسياسات عسكرية وسياسية واقتصادية وثقافية من داخل إسرائيل وخارجها. وهي سياسات تجسد طبيعة المشروع الصهيوني وطبيعة الدولة الإسرائيلية كدولة استعمارية استيطانية ذات امتدادات خارجية أو كامتداد لمشروع استعماري عالمي.

وعبر جميع هذه المفاصل من تطور الصراع كما سنرى لاحقًا، وتجسيدًا لطبيعة المشروع الصهيوني وطبيعة الدولة الإسرائيلية، كان "الغرب" الرسمي المهيمن على النظام الدولي والذي تداولت قواه الكبرى على قيادته عبر القرن العشرين حتى بدأت تنافسها قوى "شرقية" منذ نهايات هذا القرن... كان هذا الغرب الرسمي، بروافده ومستوياته المتعددة -عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا- دائمًا حاضرًا يؤثر بوطأة وبثقل على مسار هذا الصراع متعدد الأبعاد: الوجودي القومي الديني الحضاري الاستراتيجي.

كان الغرب يراقب أو يتدخل أو يرمي ويساند ويهدد ويحذر خلال مسار الصراع العربي الإسرائيلي -عبر القرن العشرين- موفرًا كل الأغذية والأركان والمحفزات والحركات للمشروع الصهيوني وإسرائيل سرًا أو علانيةً، وممارسًا كل أنماط الضغوط والتدخلات على الأطراف العربية في الصراع. ولم يكن الطرف العربي المسلم غائبًا أيضًا بالطبع، سواء على المستوى الرسمي أو غير الرسمي فاعلاً أو مفعولاً به على المستويات الجماعية العربية أو الفردية القطرية.

وإذا كان للحديث في هذا الموضوع (المشروع الصهيوني والنظام الدولي وتفاعلاته) ما يبرره الآن، بمناسبة الذكرى المئوية لوعد بلفور من ناحية، وفي وقت وصل إليه الانحدار العربي-الرسمي إلى أدنى مستوياته من ناحية ثانية، نظرًا لصعود الانتهازية النفعية السياسية العربية وامتئها للاستقلال الوطني ووصول خطورة الاستبداد والفساد على وجود الأوطان إلى الذروة، ومن ناحية ثالثة انقراض عقد النظام العربي بل وانقراض تماسك الأوطان إلا أنه ليس بالحديث الجديد أو المفاجئ فلقد تكرر، وبأشكال ودرجات متعددة، عبر مائة عام.

فلقد أضحى من حقائق الأمور المتفق عليها، ولو من منطلقات متنوعة (عقدية أو قومية أو أيديولوجية أو استراتيجية) أن المشروع الصهيوني في المنطقة العربية وإسرائيل وليد "المشروع الاستعماري الكبير" وأدواته، ولكل من الطرفين وظيفة يؤديها تجاه الآخر وبالتعاون معه في مخطط إدارة المنطقة العربية منذ ما قبل إسقاط الخلافة العثمانية واستكمال احتلال الدول العربية ثم بعد استقلال الدول العربية بصفة خاصة. والتاريخ يحدثنا عن الكثير من الاستراتيجيات والمشروعات الغربية عبر مائة عام - كما سنرى - إلا أن الغاية من استحضار هذا الموضوع الآن، يتجاوز مجرد التنبيه إلى أو التحذير مما وصلت إليه حالة الترددي الذاتي أو حالة الاختراق الخارجي وخطورته، فكم من مرة سابقة حذرنا من حالة الترددي وخطورة الوضع ومخاطر المآل... إلا أن الغاية من استحضار هذا الموضوع الآن مزدوجة:

١- بيان أن تحقيق وعد بلفور وإسرائيل لغايتها - حتى الآن - ليس حتمية تاريخية لا فكاك منها. فالذاكرة التاريخية تقدم دلالات واضحة عن مسار التحديات والتحديات التي واجهت وتواجه الأمة وعن الاستجابة وردود الأفعال ومآلاتها. حيث يبين من هذه الذاكرة أن "المقاومة الحضارية" سمة هيكلية في تاريخ هذه الأمة لا تنقطع مهما عظمت الشدائد أو انحسرت النتائج.

٢- بيان أن إنجازات إسرائيل التي وصلت إلى إعلان "تحالف استراتيجي بين العرب وإسرائيل" ليست إعجازاً إسرائيلياً خارقاً لا يمكن مقاومته، ولكنها محصلة "الترددي العربي الرسمي" من ناحية، والمساندة الدولية الخارجية للمشروع الصهيوني وصنيعته إسرائيل من ناحية ثانية، والتلاعب بالنظم العربية والضغط عليها للاستسلام والتخلي عن "المشروع الوطني الديمقراطي المستقل والعاقل" من ناحية ثالثة.

بعبارة أخرى، لا بد وأن يكون هناك جديد في الاستحضار الراهن لهذا الموضوع "إسرائيل والصهيونية والنظام الدولي"، بمناسبة مائة عام على وعد بلفور بصفة خاصة. وفي وقت تمزقت الأوطان بكافة الفتن الأيديولوجية والدينية والقومية والمذهبية برعاية قوى الاستبداد والفساد في الداخل التي تقود ثورات مضادة على الشعوب تحت غطاء الحرب على الإرهاب.

وهذا الجديد أمران: الأول تحديد موضع المشروع الصهيوني وإسرائيل من الذاكرة التاريخية للأمة، بالتنبيه إلى مفهوم المفاصل التاريخية بين القرون وحال كل قرن وسمته العام هيكلية وقيماً. فإن وعد بلفور جاء تنمة لتفاعلات عالمية شهدتها المفصل التاريخي من نهايات القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين (١٨٩٨-١٩١٧) واقترن تاريخ تأسيس إسرائيل ١٩٤٨ بالقرن العشرين وما تميز به من تفاعلات قوى دولية عالمية وإقليمية أسهمت بدورها في تشكيل محصلة سياسات إسرائيل والمشروع الصهيوني العدوانية الاستيطانية العنصرية.

الأمر الثاني: الكشف - على ضوء الأنماط التاريخية - عن مناسبات الترددي والفشل العربي في مواجهة المشروع الصهيوني حتى الآن، وكذلك مناسبات الهجوم والتدخل الغربي لصالحه؛ هل هو الخارج فقط؟ هل العسكري الاقتصادي فقط؟ أين الداخل والإقليمي وأين العقدي الثقافي القيمي من منظومة السياسات والأدوات؟ إن لهذا الكشف وجهاً آخر؛ وهو كشف زيف أقنعة الخطابات الغربية عن قيم الليبرالية: المساواة وحقوق الإنسان والديمقراطية وحقوق الشعوب في تقرير مصيرها.

والمقولة الأساسية للدراسة تتلخص في الآتي:

المشروع الصهيوني تأسيساً وتجسيداً في إسرائيل وتوسعاتها العدوانية العنصرية الاستيطانية وما تفرضه من سياسات الأمر الواقع، جميعها اختبار حي ومتجدد لنمط وحالة "الهجمات الغربية" على الأمة من ناحية، وبيان أن قوى إسرائيل

المتنامية هي محصلة لكونها دولة ذات امتدادات خارجية تتغذى من بؤر الصهيونية في كافة أرجاء العالم، وحالة وهن هذه الأمة عبر القرن العشرين، مقارنة بنظائرها في قرون سابقة للقوة أو الضعف، من ناحية ثالثة.

فإن وعد بلفور لم يتحقق بدعم غربي مباشر للمشروع الصهيوني ولإسرائيل فقط ولكن بتدخلات وضغوط خارجية على النظم العربية الحاكمة وعلى الشعوب العربية على حد سواء بكافة أدوات القوة لإجهاض مشروعات التنمية والاستقلال؛ ومن ثم توفير البيئة المناسبة العقلية والنفسية والمادية للتنازل ثم القبول ثم الاعتراف ثم التعاون.

فإن وطأة الخارجي وأدواته، وعلى رأسها إسرائيل والمشروع الصهيوني، لا تتمكن إلا بقدر ما يمكنها الداخلي، نفسياً ومعنوياً ومادياً. فإن دعم إسرائيل لم يكن غاية فقط؛ ولكن أداة ووسيلة أيضاً في المواجهة مع الشعوب العربية.

فالمفصل التاريخي الذي شهد التأسيس لإسرائيل ثم الذي شهد التوسع الإسرائيلي هو مفصل شديد الدلالة عن ما وصل إليه التهديد والاختراق الخارجي للأمة من داخل أوطانها وفيما بينها وعلى عكس مراحل سابقة في تاريخ الاستعمار، إنه المفصل التاريخي الذي تزاوج فيه الاستعمار (بوجهيه التقليدي ثم الجديد) مع النظم الوريثة له (بقيادة العسكر والمتغربين) ليوفر البيئة اللازمة لتأسيس وتوسع إسرائيل باستخدام كافة الأدوات، وبتحرك "الاستعماري" الخارجي على كافة الساحات، ليتجسد واضحاً نمط الهجوم الحضارية الشاملة على الأمة منذ بداية القرن الواحد والعشرين، وقدر ما توافر للأمة من سبل المقاومة وقدر ما تحقق لها من نجاح من عدمه.

ومن ثم تنقسم الدراسة إلى ثلاثة أجزاء:

أولاً: المشروع الصهيوني وإسرائيل في الذاكرة التاريخية للهجمات على الأمة وأنماط المقاومة الحضارية.

ثانياً: المشروع الصهيوني وإسرائيل ومنظومة التدخلات الخارجية والتفاعلات الإقليمية في ذاكرة القرن العشرين: من التدشين إلى التأسيس إلى التوسع إلى فرض الأمر الواقع (١٨٩٨ - ٢٠١٦).

ثالثاً: حصيلة المشروع الصهيوني من الحروب الحضارية الثلاث على الأمة في مفصل تحولي تاريخي (١٩٩١ - ٢٠١٦).

وهذه الأجزاء التي تعكس فقها في التاريخ، ثم فقها في الواقع القريب، وصولاً إلى فقه خريطة الواقع الراهن، ليست غاية في ذاتها تشخيصاً وتفسيراً فقط، ولكن هي سبيل أساسي أيضاً ووسيط لا غنى عنه للإبقاء على الذاكرة حية وتجديداً لها، ليس استسلاماً لضغط الأمر الواقع وقبولاً به ولكن تحدياً له وإصراراً على ضرورة تغييره بكافة صور المقاومة الممكنة. فما أحوجنا لتجديد وإحياء الوعي والتدبر والسعي إيماناً بإمكانية التغيير بالمقاومة حتى ولو في أشد اللحظات ظلمة.

أولاً- المشروع الصهيوني وإسرائيل في الذاكرة التاريخية للهجمات على الأمة وأنماط المقاومة الحضارية:

لابد أن نقرأ وتدبر "خبرة الأمة" مع المشروع الصهيوني وإسرائيل على ضوء قراءة التدبر والوعي بدلالات الذاكرة التاريخية للأمة عن الهجمات والمقاومة، حتى لا نقع في شطط الحماسة الجاهلة أو الاستسلام العاجز. **فماذا تقدم لنا هذه الذاكرة وكيف نقرب منها؟^٢**

تعرضت الأمة العربية الإسلامية، على مدى تاريخها لهجمات خارجية سواء في مراحل القوة والفتوح والوحدة أو مراحل الضعف والتراجع والتجزئة. وفي حين نجحت الأمة في استيعاب الهجمات العسكرية الخارجية والتصدي لها في مراحل متقدمة، فلقد واجهت الفشل في التصدي في مراحل أخرى لاحقة حتى اكتمل الهجوم والاستقطاع والاحتلال.

^٢ - للتفصيل انظر: نادية مصطفى، الهجمات الحضارية على الأمة وأنماط المقاومة: بين الذاكرة التاريخية والجديد منذ الثورات العربية، في: نادية مصطفى (إشراف عام)، أمي في العالم، العدد الثالث عشر، المشروع الحضاري الإسلامي: الأزمة والمخرج، القاهرة، مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠١٧، ص ٢٥ - ٣٥.

ولم يكن البُعد الداخلي في أوطان الأمة وكياناتها وكذلك البيئي - أي فيما بين هذه الأوطان - بعيداً عن هذا الخارجي؛ سواء في انكساره أولاً أو تغلبه عسكرياً لاحقاً.

كذلك، وهو الأهم، لم يكن تصدي الأمة للهجوم العسكري أو الهزيمة أمامه بمعزل عن باقي عناصر القوة والفعل أو عناصر الضعف والتخاذل: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية-القيمية. والأكثر أهمية هو أن مقاومة الأمة للتهديد من الخارج ومن الداخل أيضاً ظلت سمة مستمرة وأن تنوعت درجاتها وطبيعتها ومستوياتها داخلياً وخارجياً.

ومن ثم فإن إعادة قراءة تاريخ الأمة، في مراحلها المتعاقبة وفي تفاعله مع تواريخ الأمم الأخرى، يجب ألا تكون قراءة اختزالية جزئية، عسكرية أو سياسية، داخلية أو خارجية ولكن يجب أن تكون قراءة حضارية كلية شاملة. فالهجمات والتحديات والتهديدات كانت حضارية شاملة وليست عسكرية فقط أو خارجية فقط، والاستجابات والمقاومات كانت أيضاً حضارية سواء الداخلية منها أو الخارجية، كما لم تنقطع على مدار هذا التاريخ وبأشكال وأنماط متنوعة، وفقاً للسياقات الوطنية والإقليمية والعالمية المتغيرة.

إن الذاكرة الباقية والممتدة عن تاريخ الأمة تنضح باستمرار الرسالة والدعوة والجهاد والإصلاح والمقاومة في إطار الأمة والحضارة وفقاً للقيم والمقاصد والسنن وانطلاقاً من العقيدة والشريعة، ويقدم فقه هذه الذاكرة دلالات مهمة للراهن سواء عن حالة الهجمات (تحديداً أو تهديداً) أو عن حالة المقاومة الحضارية سواء في ظل القوة أو الاستضعاف. وبناء عليه، فإن فهم "الواقع الراهن" للأمة لا يستقيم بدون استدعاء الذاكرة الحضارية للأمة، هكذا تعلمنا من أعلام المنظور الحضاري.

يستدعي مفهوم الذاكرة التاريخية الحضارية وتوظيفها في التحليل السياسي منظومة من المفاهيم المتشابهة: الزمان والمكان في تطورهما المتفاعل وأهمية النظر والتدبر في التاريخ، نهايات القرون وبدايات القرون ومفاصل الانتقال والتغيير في التواريخ الحضارية للأمم، تغيير مسائل القضايا بتغيير المساحات الزمانية والمكانية وتغيير الأسباب، الرؤية الكلية المنظومية متجاوزة التفاصيل نحو الخصائص والأنماط الكبرى، مفهوم الأنماط، ومفهوم النماذج التاريخية الدالة على التغيير في التفاعلات، أزواج مفاهيم التحديات/الاستجابات، الهجمات/المقاومات، التهديدات/التصدي، مفهوم الحضاري الجامع الشامل المنظومي بين ثنائيات وثلاثيات متكاملة: الداخل/الخارج (الوطن - الأمة - العالم) العسكري/السياسي والاقتصادي، السياسي/الديني والثقافي؛ وأخيراً التحليل الحضاري الدولي وأنماط التفاعلات الحضارية: التفوق الحضاري، القوة الحضارية، الاستيعاب الحضاري، الخلل الحضاري، الانحدار الحضاري، الانهيار الحضاري.

ويغلف مجموعات هذه المفاهيم وغيرها ويختبرها إشكالية العلاقة بين الفكر والممارسة، على صعيد فقه التاريخ وصولاً إلى فقه الواقع الراهن. وينشق عن هذه المجموعات من المفاهيم المتراكمة، إطار نظري مركب عن "الذاكرة الحضارية للأمة"، يمكن أن تستند إليه دراسة العديد من التحولات المعاصرة وقضاياها وعلى رأسها المشروع الصهيوني وإسرائيل قبل وبعد "الثورات والثورات المضادة في المنطقة العربية".

فإن الذاكرة التاريخية الحضارية عن الهجمات على الأمة من الخارج ومن الداخل تقدم الكثير من الخبرات والنماذج والمفاصل التي تستدعي ضرورة الانتباه إلى ما يلي:

- 1- التشابك بين ثلاث منظومات من المفاهيم المتحاضنة والمتكاملة وهي: (١) منظومة حالات الفعل الحضاري للأمة: تدافعاً أم صراعاً أم تعاوناً بأدوات الحرب أو السلم. (٢) منظومة وسائط وسبل الفعل الحضاري: الجهاد، التجديد، الإصلاح، التغيير، الثورة، الحوار. (٣) منظومة مخرجات الفعل الحضاري: القوة الحضارية،

الشهود الحضاري، الهيمنة الحضارية، العالمية الحضارية، الجمود الحضاري، التراجع الحضاري، الاستلاب الحضاري، التشوه الحضاري، الاحتلال الحضاري والانحدار الحضاري ثم السقوط الحضاري، التداول الحضاري، النهوض الحضاري.

والعلاقات داخل كل منظومة وفيما بين المنظومات الثلاث علاقة وشيخة وشرطية وليست حتمية خطية صاعدة أو هابطة. تجسدت هذه العلاقات عبر تاريخ الأمة باختلاف الزمان والمكان في مصفوفات مركبة (يحتاج اكتشافها إلى دراسات مقارنة عديدة) تختبر مقولة أو سُنَّة أن المقاومة الحضارية عملية مستمرة في تاريخ الأمة، ليس في مواجهة "الخارج" فقط ولكن داخلياً أيضاً، فالإصلاح والتجديد أو الثورة ليست داخلية بالأساس ولكن تتجه للخارج.

٢- الهجمات قد تكون مجرد تحدٍّ للأمة يتطلب استجابة تقدر عليها الأمة أو قد تصل لدرجة التهديد حين يشتد التحدي ولا تصبح الأمة قادرة على التصدي له؛ وهو الأمر الذي يتطلب حينئذٍ شحذ المقاومة باختلاف أنماطها حتى لا ينقلب الخلل في الموازين الحضارية إلى استيعاب واستلاب كامل وليس مجرد هزيمة عسكرية. ذلك أن الهجوم العسكري، انتصاراً أو هزيمة، ليس هو المحكّ الأساس في الهزيمة الحضارية أو السقوط الحضاري أو الاستبدال الحضاري؛ ومن ثم فإن مفاصل المسار التاريخي للعلاقات الخارجية للأمة تكشف عن تواريخ هزائم عسكرية تم استيعابها وتجاوزها والتغلب عليها، والعكس صحيح. والمحكّ كان القدرة الحضارية الذاتية في الاستجابة والمقاومة أو الخلل والعجز الحضاري؛ والمحكّ الثاني الأكثر أهمية هو ماهية التدخل الخارجي ودرجته وطبيعته وقدرته على "تقسيم صف الأمة" واختراقها من الداخل بأدوات أخرى غير الأداة العسكرية، وخاصة الأدوات الاقتصادية والثقافية. وتتغير أساليب وأدوات وأنماط هذا التدخل عبر المسار التاريخي وفق محددات عدة؛ من أهمها طبيعة النظام الدولي-العالمي القائم. فلا يمكن فهم الذاكرة التاريخية للأمة دونما القيام بأمرين: من ناحية أولى: فهم الارتباط بين ماهية طبيعة النظام العالمي القائم في كل مرحلة وبين الأبعاد الداخلية وبين الأبعاد البينية لمكونات الأمة؛ أي ضرورة الربط بين ثلاثية: حالة القوة أو الضعف، حالة الوحدة أو التجزئة وحالة الشهود أو التراجع أمام الهجمات الخارجية. ومن ناحية أخرى: الرؤية من خلال منظور حضاري للظواهر يجمع -كما سبق القول- بين أبعاد الداخل والخارج وبين القيمي والمادي، وبين الرسمي وغير الرسمي، وبين الفكري والحركي. فالهجمات الحضارية ليست عسكرية فقط وليست من الخارج فقط، وليست تستهدف عناصر القوة المادية فقط.

وبعد، وكما سبق القول في المقدمة، فإن مشروع بلفور والمشروع الصهيوني وإسرائيل يقعان في مفصل تاريخي مهم، فما أهم هذه المفصلات وما دلالتها وصولاً إلى المفصل التاريخي الراهن (بدايات القرن الحادي والعشرين)؟

إن التقديم الموجز السابق عن مفهوم الذاكرة التاريخية ومقتضيات دراستها وأهميتها يستدعي لنا مفهوم "مفاصل ونقاط التحول الكبرى في الهجمات الحضارية على العالم الإسلامي"^٣، سواء من حيث حالة الأمة والنظام العالمي برمته من ناحية، وماهية هذه الهجمات ودرجة ما تمثله من تحدٍّ أو تهديد من ناحية أخرى، وأنماط المقاومة المتتالية المتغيرة ولكن الدائمة والمستمرة من ناحية ثالثة.

وهذا المفهوم يرتبط -كما سنرى- بمفهوم نهايات وبدايات القرون ودلالاتها استناداً في جانب منه إلى الحديث الشريف: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها". حيث يتضح من التحليل النظامي الدولي للتاريخ الإسلامي أنه يمكن التمييز بين مفاصل تاريخية مهمة امتدت من نهايات قرن إلى بداية القرن التالي

^٣-انظر: نادية مصطفى، الهجمة الحضارية على الأمة وأنماط المقاومة، مرجع سابق، ص ٣٠ - ٣١.

وشهدت تحولات مهمة سواء على صعيد الداخل الإسلامي (تعاقب سقوط وصعود الخلافات أو الدول الإسلامية الكبرى مثلاً) أو مستوى البيئي من مكونات الأمة (الوحدة أو التفكك أو التقسيم أو التجزئة) أو على مستوى علاقات الأمة بالخارج (الحملات العسكرية، النفوذ والسيطرة، الاحتلال، التبعية الاقتصادية والثقافية...).

وجميعها كانت مفاصل في التحديات الهيكلية للأعمدة الفكرية وأعصاب الأمة المادية منها وغير المادية: الأرض، النظم، الثروة، العقول والقلوب، والأهم: "العقيدة".

وبالنظر إلى القرون الخمسة الأخيرة، منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، القرن التاسع هجريًا، على سبيل المثال، وهي المعروفة بقرون "الأزمة" (بدايةً وتناميًا وذروةً..)، يمكن التمييز بين عدد من المفاصل في تطور التوازنات العالمية بين مراكز القوة الإسلامية ومراكز القوة الغربية وجميعها اقترنت بنهايات قرن وبدايات قرن...؟ وجميعها اقترنت بأحداث ووقائع شديدة الدلالة بالنسبة لهذه التوازنات وفي التحولات، وفي الهجمات مع صعود منحى القوة الحضارية الغربية، وبداية منحى انحدار القوة الحضارية الإسلامية بعد وصولها إلى الذروة وصولاً لذروة الأزمة مع نهاية القرن الثالث عشر هجريًا والتاسع عشر ميلاديًا وبداية القرن الرابع عشر هجريًا والقرن العشرين ميلاديًا.

وهذه المفاصل التاريخية هي:

- ١- (١٤٩٢-١٥١٧): بداية بالكشوف الجغرافية وسقوط غرناطة (استكمالاً لسقوط الأندلس التدريجي) واستنزاف التحرك العثماني غرباً في أوروبا وتحوله نحو الجنوب وضم مصر والشام والصدام مع الصفويين.
- ٢- (١٥٧٠-١٦٠٦): اشتداد الصدام العسكري العثماني -الأوروبي وبدايات جمود الفتوح العثمانية بل وتراجعها من معركة ليبانت ١٥٧٠ إلى معاهدة زيتفاتوروك ١٦٠٦.
- ٣- (١٦٩٩-١٧١٥): الهزائم العسكرية العثمانية و أول استقطاع للأراضي في معاهدة كوكينارجا إلى بداية إدخال الإصلاحات في المركز العثماني نقلاً عن الغرب.
- ٤- (١٧٨٩-١٨١٥): اندلاع الثورة الفرنسية وتغير التوازنات الأوروبية وامتداد التنافسات الأوروبية إلى قلب العالم الإسلامي واقتطاع جديد من الإمبراطورية العثمانية وتوازن أوروبي جديد وفق مؤتمر فيينا.
- ٥- (١٨٨٤-١٩١٩): التنافسات الاستعمارية وعواقب الثورة الصناعية على موجة الاستعمار الثانية، وانحياز توازن القوى المتعددة واندلاع الحرب العالمية الأولى بعد فشل تسويات مؤتمر برلين ١٨٨٤.
- ٦- (١٩٩١-٢٠١١): موجات ثلاث من الحروب الحضارية عبر أرجاء الأمة في ظل تداعيات نهاية الحرب الباردة، وعواقب هجمات ٢٠٠١ واندلاع ما يسمى الحرب العالمية على الإرهاب "الإسلامي".

ويتضح من توالي هذه المفاصل الخمسة الأولى التحول التدريجي في مركز القوة العالمية والحضارية من المراكز الإسلامية، وخاصة العثمانية، إلى المراكز الأوروبية الغربية. فبعد الصمود العثماني في المرحلتين الأوليين تغلب الهجوم الأوروبي في المرحلتين التاليتين، وكانت الخامسة إيداناً بميلاد نظام دولي مختلف الهيكل والحالة والقيم. وخلال هذه المراحل وتعاقبها انضمرت الأبعاد العسكرية بالأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فلم تكن الهزائم العسكرية العثمانية إلا بداية للاتجاه للغرب للنقل عنه حضارياً وليس عسكرياً فقط، ولم يكن الاحتلال العسكري المتوالي لأرجاء العالم الإسلامي إلا تجسيدا للضعف الحضاري الذاتي ومن ثم بداية للخلل الحضاري في الداخل والناجم عن الفرض القسري "للغربي" من أعلى في ظل الاحتلال. ولم يكن الاحتلال والتغريب إلا وجهين في عملية ثلاثية الأبعاد حيث كان الوجه الثالث هو التقسيم والتجزئة. ولكن لم تكف المقاومة بأشكال مختلفة في مواجهة هذا الانحدار الحضاري الثلاثي الأبعاد في محاولة للإصلاح والتجديد والنهوض والشهود من جديد.

إذن، ما الذي دشنته المفصل الخامس (١٨٩٨ - ١٩١٧) من جديد، ثم القرن العشرون، من حيث طبيعة الهجمة أو طبيعة المقاومة ضدها؟

يقع في صميم الإجابة عن السؤال الأخير موضع المشروع الصهيوني وإسرائيل من هذه الذاكرة التاريخية على ضوء القواعد والأسس العامة التي يمكن استخلاصها من هذه الخبرة الممتدة من الفعل الحضاري الإسلامي.

إن استدعاء هذه الأنماط التاريخية ذو دلالات متعددة بالنسبة للواقع الراهن:

فإن ذاكرة فقه تاريخ الأمة، في صعودها الحضاري، ثم تراجعها وهبوطها، وصولاً إلى فقه واقعها، يبين لنا رابطة تفاعلية بين ثلاثة محاور: "عوامل قوة وضعف الدول الإسلامية، العلاقات بين الدول الإسلامية، العلاقات بين الدول الإسلامية وغيرها من الدول. وتنبثق هذه المحاور الثلاثة عن قضيتين أساسيتين تقعان في صميم الاهتمام بفقه العلاقات الإسلامية الدولية الراهنة: الأولى هي قضية العلاقة مع الدول الأخرى في ظل قواعد العلاقات الصراعية القتالية أو التعاونية السلمية التي يطرحها المفهوم الواسع لـ "الجهاد". والقضية الثانية هي قضية انتشار نموذج الدولة القومية أمام ضغوط التعددية السياسية الدولية، وصولاً إلى حالة التجزئة في الأمة. والإطار العام الكلي الذي تنبثق عنه القضيتان بدوريهما يتمثل في التطور التاريخي لوضع الأمة في النظام الدولي على نحو أفرز التبعية بعد الاستقلال من ناحية، كما شهد، من ناحية أخرى، شحوب فكرة الأمة وتدهور الالتزام بمقتضياتها بالنسبة إلى العلاقات الإسلامية-الإسلامية، على نحو أفرز التجزئة والقطرية بعد الوحدة والتعددية.

بعبارة أخرى: فإن خبرة التاريخ الإسلامي عن نمط تطور العلاقات الإسلامية-الإسلامية بعيداً عن الوحدة، لا ينفصل عن خبرة نمط تطور العلاقة مع الآخر (نحو التبعية)، أو عن خبرة نمط التطور الداخلي في الدول الإسلامية (نحو التغريب). ولهذا؛ فإن آفة الواقع المعاصر للأمة مع القرن العشرين هي أن التجزئة تقترن باختراق خارجي ضخم لشبكة العلاقات الإسلامية-الإسلامية، كما تقترن بتغريب الأمة.

ومن ثم، فإن فقه العلاقات الإسلامية-الإسلامية يفرز دائماً أثنائاً جديدة للتحديات المتواترة والمتراكمة والمتكررة. فقضايا الوحدة أو التعدد والتجزئة، النصر أو التخاذل، حل المنازعات وفقاً للقواعد الإسلامية أو من خلال تدخل خارجي، التحالفات أو الحروب فيما بين الدول الإسلامية، التكافل والتكامل الاقتصادي أو تنازع المكاسب، جميع هذه القضايا التي تثيرها العلاقات الإسلامية-الإسلامية قد ارتدت أثنائاً مختلفة من مرحلة إلى أخرى على نحو يبين لنا معه كم أضحت كبيرة الفجوة بين فقه الأصل وبين فقه الواقع في بدايات القرن العشرين ميلادياً، والقرن الرابع عشر هجرياً.

ثانياً- المشروع الصهيوني- إسرائيل والنظام الدولي في ذاكرة القرن العشرين (القرن الأزمة الكبرى للأمة):
من التدشين إلى التأسيس إلى التوسع إلى فرض الأمر الواقع بالقوة (١٨٩٨-٢٠١٦):

إن الاستدعاء السابق للأنماط الكبرى التاريخية لتفاعلات الأمة ذو دلالات متعددة بالنسبة لما آل إليه المشروع الصهيوني وإسرائيل عبر القرن العشرين (قرن الأزمة الكبرى)، وصولاً إلى بدايات القرن الحادي والعشرين.

فإن المحطات الأربع الأولى من ذاكرة قرون الصعود ثم قرون الانحدار الحديث تحمل دلالات معاصرة بالنسبة للقرن الرابع عشر الهجري، والعشرين الميلادي، تساعد على فهم وتفسير خريطة هذا القرن: قرن الأزمة الرابعة الكبرى (الاحتلال العسكري والتجزئة والتبعية) وصولاً إلى أزمة نهايات القرن العشرين الميلادي وبدايات القرن

الخامس عشر المهجري والقرن الحادي والعشرين الراهنة (١٩٩١-٢٠١٦) وما تفصح عنه بدورها من الجديد في التهديد وخاصة منذ اندلاع الثورات العربية.

ومن أهم هذه الدلالات بالنسبة لأزمات الهجمات: وزن العامل العقدي مقارنة بالمادي وحقيقة الصراع بين الشرق والغرب من حيث العلاقة بين الأبعاد الدينية والأبعاد المادية في تطور هذا الصراع، وزن تأثير الاختلافات الدينية والمذهبية والطائفية والقومية بين شعوب الأمة إيجاباً أو سلباً في عصور القوة والانحدار، التغيير في أشكال وأدوات الهجمات الصليبية أو الأوروبية الحديثة وتعدد الأردية التي تغلفها من عصر إلى عصر استهدافاً للشعوب، التزايد في حجم وعمق الهجمات لتصل إلى تهديد بتدخل خارجي شديد السلبية على العلاقات بين الدول الإسلامية وعلى الداخل في الأوطان الإسلامية، انتقال المواجهة بين الجيوش والقادة إلى مواجهة مع الشعوب حيث يتم استهدافهم بقدر استهداف الجيوش والثروات المادية وأراضي الأوطان.

ومن أهم الدلالات بالنسبة لأنماط المقاومة، أن الاستجابات التي تستوعب التحديات وتتجاوزها بكافة الأدوات تحولت إلى أشكال مستمرة من المقاومة للتهديدات اللامتناهية وطالما استمرت هذه التهديدات لم تنقطع أشكال المقاومة، كبرت أو صغرت، نجحت أو فشلت في تحقيق أهدافها. ولم تكن الثورات غائبة بأنماطها المختلفة وإن اتسمت بخصوصيتها.

وعلى ضوء هذه الدلالات، يجب أن نطرح أسئلة جديدة: لماذا فشلت المقاومة العسكرية والثورات في وقف الاحتلال، ولماذا لم تنجح جهود الإصلاحات من الداخل لتجديد القوة الذاتية؟ ولماذا لم تنجح جهود إعادة التوحيد في مواجهة الخطر؟ فهل هناك أسباب أخرى غير أسباب الانحدار؟ والأهم: ماذا عن المقاومة طوال القرن العشرين ولم لم تُحدث آثارها وازداد الانحدار؟

ولم يكن صعود الاستبداد وصراعات الملك العضوض والفساد على حساب حقوق الأفراد والمجتمعات بعيداً عن تداعي الأمة أمام الهجمات الخارجية في ظل استحكام "عقلية الوهن". ولم يكن اشتداد الاختراق الخارجي للداخلي والبيئي، ولم تكن الزيادة في مقدرات الخارجي، بعيدة عن فهم أسباب الفشل في الاستجابة الرشيدة وفي مقاومة الهجمة الحضارية لوقفها أو منع امتدادها في هذه المرحلة، كما حدث في مراحل سابقة من الهجمات، حيث كانت المنعة الحضارية الشاملة قادرة على استيعاب هزيمة عسكرية في موقعها ثم المبادرة بالهجوم من جديد أو الصمود والدفاع.

ومنطلق استيعاب وإدراك وتدبر هذه الأنماط الكبرى ودلالاتها في القرن العشرين منظومة ثلاثية: الصهيونية وإسرائيل، التبعية للخارج، التجزئة والفساد والاستبداد والعسكرة في القرن العشرين، بل منذ المفصل التاريخي الخامس: نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

فهذا القرن هو قرن استكمال استعمار أوطان الأمة وتجزئتها بين القوى الاستعمارية، ولو تحت مظلات عصابة الأمم ثم الأمم المتحدة وفق تسويات ما بعد الحربين العالميتين العلنية والسرية، كما أنه قرن المقاومة الشعبية العسكرية ضد الاحتلال وتحقيق الاستقلال الرسمي. إنه قرن التجزئة الكاملة بعد سقوط آخر رمز ولو شكلي لوحدة الأمة؛ ألا وهو الخلافة العثمانية، ولكن لم تنقطع محاولات إحيائها أو تجديد أشكال الروابط الإسلامية المدنية والرسومية. إنه قرن إنشاء دول قطرية مستقلة بعضها عن بعض تتصارع مصالحها القومية في ظل تداعيات إرث الاستعمار ومرتكزاته التي خلفها بعد رحيل جيوشه، ومن أهم هذه الركائز الاستراتيجية: المشروع الصهيوني ودولة إسرائيل، ومشروع التغريب. إنه قرن استكمال فرض التغريب قسرياً من أعلى بالتعاون مع "نخب حداثة"، واستبدال النموذج الحضاري الإسلامي (الذي

كان في حاجة لإصلاح وتجديد)، في الوقت الذي لم تتوقف جهود إحياء وتجديد النموذج الإسلامي الحضاري بكافة أبعاده.

(١) الصهيونية وإسرائيل وخريطة التدخلات الخارجية والتفاعلات الإقليمية عبر قرن: انكشاف الأدلة

الوظيفية للاستعمار الجديد:

- اقترن تدشين المشروع الصهيوني بمفصل فارق في تطور النظام الدولي: تصفية الدولة العثمانية وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى.
- اقترن تأسيس إسرائيل بمفصل آخر نوعي وهو تسويات ما بعد الحرب العالمية الثانية وهيكل الشائبة القطبية والحرب الباردة.
- واقترن توسع إسرائيل وعدوانها طيلة نصف قرن بتداول قيادة النظام الدولي من بريطانيا (صاحبة وعد بلفور) إلى الولايات المتحدة الحليف الاستراتيجي في ظل انقسام المنطقة في حرب باردة عربية.
- واقترن الصعود الإسرائيلي وفرض أمره الواقع (١٩٩١ - ٢٠١٦) بثلاثة حروب حضارية على الأمة ١٩٩١، ٢٠٠٣، (٢٠١١ - ..)؛ اي اقترن بنهاية الحرب الباردة والانفراد الأمريكي لعقدين بالنفوذ الغربي في المنطقة وفرض عملية السلام بين العرب وإسرائيل وتحليات سياسات العولمة وأدواتها على النظم والشعوب نحو مزيد من الاستتباع الحضاري للغرب، وفورة القوميات والأديان، واستبداد النظم والثورات المضادة على الثورات العربية تحت ذريعة الحرب على الإرهاب.

وبقدر ما كانت الثورات العربية ناقوس خطر لإسرائيل وناقوساً مبشراً بتغيير موازين القوى العالمية حول المنطقة وبدخلها في وقت بدأ الحديث عن الانحدار الأمريكي، بقدر ما كان لا بد أن تكون الثورات المضادة والانقلابات العسكرية والحركات المسلحة الإرهابية هي الأسلحة المضادة التي دافع بها النظام المهيمن عن بقائه في مرحلة تكيف جديدة، وأتاح الفرصة فعلياً لتأكيد وضع إسرائيل في المنطقة القائم على فرض الأمر الواقع من منطلق ضعف وتردي العرب ذاتهم وانشغالهم في اقتتال بيني وداخل الأوطان بشكل غير مسبوق من حيث عنفه ودرجة اتساعه وعمق التدخلات الخارجية فيه.

ولعل الفارق الواضح بين مضمون خطاب تنياهو أمام الجمعية العامة في سبتمبر ٢٠١١ (بعد تسعة أشهر من اندلاع الثورات) وخطابه الأخير أمام نفس المحفل ٢٠١٧، ذو دلالة واضحة بهذا الصدد. حيث وعلى عكس خطاب ٢٠١٧ السابق الإشارة إليه، فإن خطاب ٢٠١١ حمل ثلاثة ملامح أساسية:

أ- هجوم على الأمم المتحدة لعدائها لإسرائيل ".... أيها السيدات والسادة ، إن أملنا في تحقيق السلام لا يتلشى أبداً في إسرائيل. إن علماءنا وأطباءنا ومبتكرينا يوظفون عبقريتهم لتحسين عالم الغد فيما يشري فنانونا وكتابنا التراث الإنساني. وأعلم بأن هذه ليست تماماً صورة إسرائيل كما يتم رسمها كثيراً ما في هذه القاعة. إذ كان قد تم عام ١٩٧٥ - وبصورة مخزية - وسم توك شعبي القديم لاستعادة حياتنا القومية في أرض أجدادنا من الكتاب المقدس بأنه عنصرية [بالإشارة إلى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في ذلك العام اعتبار الصهيونية حركة عنصرية] ، ثم تم في هذا المكان تحديداً عام ١٩٨٠ التنديد - وليس المدح - بمعاهدة السلام التاريخية بين إسرائيل ومصر ، كما أن إسرائيل تتعرض دون غيرها هنا [في الجمعية العامة للأمم المتحدة] عاماً تلو الآخر للاستنكار، لا بل تتم إدانتها أكثر من كل دول العالم مجتمعة، حيث

هنالك ٢١ قراراً من مجموع قرارات الجمعية العامة الـ ٢٧ يدين إسرائيل وهي الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط.....".

ب- التذكرة بالتشدد الإسلامي وخطورته على الأمن العالمي بعد ٢٠٠١ وبعد الثورات العربية بصفة خاصة. وإذا لم تكن الثورات العربية قد حظيت في الخطاب إلا بفقرة واحدة، فإن العالم كله كان غائباً عن الخطاب ولم يكن حاضراً بقوة سوى التحذير من التشدد والتطرف الإرهابي مقروناً بالفلسطينيين أو منفصلاً عنهم.. فقال: "... إن هذا الخبث هو التشدد الإسلامي الذي يتخفى بعباءة الإيمان الشديد لكنه يقتل اليهود والمسيحيين والمسلمين على حد سواء بشكل لا يُغتفر. لقد قتلت العناصر الإسلامية المتشددة في الحادي عشر من سبتمبر أيلول [٢٠٠١] الآلاف من الأميركيين وجعلت الريحين التوأمين [مركز التجارة العالمي في نيويورك] أنقاضاً يتصاعد منها الدخان. وقد وضعت الليلة الماضية إكليلاً من الزهور في النصب التذكاري المقام لإحياء ذكرى ضحايا الحادي عشر من سبتمبر، وكان الأمر مثيراً للعواطف العميقة. لكن عندما توجهت إلى ذلك المكان ترددت في خاطري فكرة واحدة وهي الكلام الشنيع الذي ألقاه الرئيس الإيراني من على هذا المنبر أمس حيث لمح ضمناً إلى أن ما جرى في الحادي عشر من سبتمبر لم يكن إلا مؤامرة أميركية. وعندها انسحب بعضكم [مخاطباً أعضاء البعثات الدبلوماسية لمختلف الدول الأعضاء في الأمم المتحدة] من القاعة لكن كان يجدر بجمعكم مغادرتها..."

ج- الهجوم على الفلسطينيين بفكرة تمسك إسرائيل بالسلام ورفض الفلسطينيين التفاوض المباشر وتفنيد كل الاتهامات للسياسات الإسرائيلية الاستيطانية العدوانية، بل دعوة الفلسطينيين للاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية^٤.

إن قراءة وتدبر خريطة الأحداث والوقائع والمفاصل المتراكمة عبر قرن بين العرب وإسرائيل، داخل فلسطين وخارجها، بصورة فردية أو جماعية، عسكرية أو سلمية تبين أن الخارج (النظام الدولي) حاضر فيها بقوة، دعماً لإسرائيل وتلاعباً بالنظم العربية، رغم كل هجوم إسرائيل على الأمم المتحدة السابق الإشارة إليها ويكفي هنا رصد ملامح هذه الخريطة التي لم تكف الأقاليم العربية والأجنبية عن تشخيصها وتحليلها كل في حينها^٥. وهي خريطة ثلاثية المستويات؛ ما قبل إسرائيل، ومنذ تأسيسها حتى السلام المصري الإسرائيلي، ثم بداية عملية

^٤ - نص كلمة نتباهو في الدورة ٦٦ للجمعية العامة للأمم المتحدة، منشور على موقع إسرائيل بتتكم عربي، متاح على الرابط التالي: <https://goo.gl/vaMNZB>
^٥ - راجع في هذا الإطار:

- د. حامد ربيع، تأملات في الصراع العربي- الإسرائيلي، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، يناير ١٩٧٦).
- د. نادية محمود مصطفى، الدبلوماسية الفرنسية والغزو الإسرائيلي للبنان. مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٨-٩ يولييه-أكتوبر سنة ١٩٨٣.
- د. نادية محمود مصطفى، السياسة الفرنسية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي (١٩٦٧-١٩٧٧): الأبعاد والمحددات، مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ١٣-١٤ يولييه ١٩٨٥.
- د. نادية محمود مصطفى، سياسات سباق التسلح الإسرائيلي العربي خلال الثمانينات. بين الفرص والمكاسب الإسرائيلية وبين القيود والضغط على مصر، مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، أبريل ١٩٩٠.
- د. حامد ربيع وآخرون، قراءة في فكر علماء الاستراتيجية: الجولة الإسرائيلية- العربية السادسة، سلسلة نحو وعي سياسي واستراتيجي وتاريخي، الكتاب الأول، (المنصورة: دار الوفاء، ١٩٩٩).
- أحمد جبريل، قضية القدس في القرن العشرين: الجذور التاريخية والآفاق المستقبلية، (بي): د. نادية محمود مصطفى، د. سيف الدين عبد الفتاح (محرران)، الأمة في قرن، عدد خاص من حولية أم تي في العالم، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، دار الشروق الدولية، ٢٠٠٢) (الكتاب الثالث).
- د. بشير أبو القربا، الظاهرة الانتفاضية: دراسة في النموذج الفلسطيني (١٨٨١-٢٠٠١)، (بي): د. نادية محمود مصطفى، د. سيف الدين عبد الفتاح (محرران)، الأمة في قرن، عدد خاص من حولية أم تي في العالم، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، دار الشروق الدولية، ٢٠٠٢) (الكتاب السادس).

السلام العربي الإسرائيلي ١٩٩١ وعملية السلام الفلسطيني الإسرائيلي، ثم منذ ١٩٩١ مروراً بحروب حضارية ثلاثة باسم الحرب على الإرهاب أو دعماً للديمقراطية. وتتلخص العناوين الكبرى لهذه الخريطة بمستوياتها الثلاثة في الآتي:

- الإعلان عن المشروع الصهيوني ١٨٩٨، إعلان وعد بلفور بعد سايكس بيكو وتسويات الحرب العالمية الأولى.
- الإعداد بالعنف لتأسيس إسرائيل في فلسطين في مرحلة ما بين الحربين العالميتين.
- إعلان قيام دولة إسرائيل، ثم الحروب العربية الإسرائيلية المتتالية الكبرى منها والصغرى: ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ١٩٨٢، ١٩٨٧، ٢٠٠٠، ٢٠٠٨، ٢٠١٣، ... وما لحق بكل منها من مفاوضات مباشرة أو غير مباشرة، وصولاً إلى معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية ثم مؤتمر مدريد ١٩٩١ ومعاهدات السلام الفلسطينية (١٩٩٣) و الأردنية (١٩٩٤) ...، وما أحاط بكل هذه التطورات العسكرية والدبلوماسية من جهود تفرغ القضية الفلسطينية وتصفيتها ابتداءً من تحويد القدس والاستيطان والحدار العازل والعدوان على غزة وحصارها وتعميق الانشقاق في الصفوف الفلسطينية.

-
- د. بشير أبو القرايا، الانتفاضة الفلسطينية ومسار الصراع العربي الإسرائيلي، (في): حولية أمتي في العالم، العدد الخامس، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٣).
 - أسامة مجاهد، مدحت ماهر، محمد مطاوع، قائمة الكتابات العربية والمترجمة إلى العربية حول "إسرائيل" و"الصهيونية" من العام ١٩٤٨، في: د.نادية محمود مصطفى، أهبة رءوف عزت (محرران)، إسرائيل من الداخل: خريطة الواقع وسيناريوهات المستقبل (أعمال المؤتمر السنوي السادس عشر للبحوث السياسية، القاهرة: ٢٨ - ٣١ ديسمبر ٢٠٠٢) - المجلد الثاني، مركز البحوث والدراسات السياسية: جامعة القاهرة، ٢٠٠٣.
 - د.نادية محمود مصطفى، أهبة رؤوف (محرران): إسرائيل من الداخل: خريطة الواقع وسيناريوهات المستقبل، القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ٢٠٠٣. ويتضمن الموضوعات التالية:
 - رؤى مصرية عن إسرائيل.
 - حالة دراسة إسرائيل بين أقسام العبرية والعلوم الاجتماعية في مصر.
 - مشروعية إسرائيل: النشأة والمآل.
 - الخريطة السياسية في إسرائيل.
 - الخريطة المدنية والاجتماعية في إسرائيل.
 - شهادات حول الجهود المدنية الفلسطينية.
 - الاقتصاد الإسرائيلي: النموذج والهيكلة والأداء.
 - إسرائيل والمجتمع المدني العالمي.
 - امتدادات إسرائيل في الدوائر الإقليمية.
 - التحالف الاستراتيجي الإسرائيلي الأمريكي.
 - صورة إسرائيل في العالم.
 - رؤية استشرافية لدور الأكاديمية العربية.
 - د. نادية محمود مصطفى (محرر)، ماذا بعد انهيار عملية التسوية السلمية؟ (بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات السياسية في جامعة القاهرة)، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤.
 - د. نادية محمود مصطفى، أ.أحمد جبريل (محرران): بين تطور الحل العسكري الإسرائيلي ومراجعة السياسة الإسرائيلية تجاه التسوية السلمية (٢٠٠٠ - ٢٠٠٤) قراءة في وثيقة جنيف وتداعياتها، سلسلة شئون إسرائيلية وفلسطينية (١)، جامعة القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ٢٠٠٤.
 - د. نادية محمود مصطفى، أحمد جبريل (محرران): التسوية الإسرائيلية الفلسطينية: من خبرة كامب ديفيد ٢ إلى خبرة خطة شارون أحادية الجانب وما بعد عرفات: المسارات والدلالات والآفاق، سلسلة شئون إسرائيلية وفلسطينية، العدد ٨، جامعة القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ٢٠٠٥.
 - أحمد جبريل، الانتفاضة الفلسطينية وخريطة الطريق، (في): حولية أمتي في العالم، العدد السادس، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية ٢٠٠٥).
 - د. نادية محمود مصطفى (محرر)، معاداة السامية بين الأيديولوجيا والقانون والسياسة، جامعة القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع، ٢٠٠٧.
 - مدحت ماهر، فلسطين ٢٠٠٨: الصمود والحدلان أمام الحصار والعدوان، (في): حولية أمتي في العالم، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٩).
 - د. سيف الدين عبد الفتاح، د. نادية مصطفى (إشراف عام)، حولية أمتي في العالم: غزة بين الحصار والعدوان، العدد التاسع، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠١٠م).

(٢) إن قراءة تفاصيل هذا المسار المعقد للصراع تقود إلى استخلاص ما يلي عن نمط منظومة العلاقة

بين إسرائيل والنظام الدولي (الشامل، الإقليمي، عبر الإقليمي) وأثرها على وضع إسرائيل في المنطقة:

أ- الانتقال من الحروب الكبرى إلى الصغرى مع استمرار المقاومة المسلحة بأشكال متنوعة، صعود مسار التسوية السلمية وخاصة منذ ١٩٩١ وتعدد وتنوع مشروعات التسوية السياسية برعاية خارجية، التي اختبرت الانقسامات العربية وكذلك الفلسطينية، بل كانت وراء تفاقمها لدرجة توارى فيها الصراع مع العدو الأساسي أمام صعود الصراعات الفرعية بين الدول العربية وفلسطين حول نمط العلاقة مع إسرائيل أولاً، سلمياً أو حربياً، اعترافاً أو تطبيعاً، وحتى توارت هذه الانقسامات حول "العدو الأصلي" أمام الانقسامات داخل الأوطان. فلم يكن المسار السياسي السلمي التفاوضي إلا استجابة للضغوط على الدول العربية وفي إطار من عدم توازن القوى بين العرب وإسرائيل.

ب- توالي المشروعات الغربية في المنطقة، من حلف بغداد إلى الشرق الأوسط إلى المتوسطية إلى الشرق الأوسط الكبير إلى التحالف الدولي ضد الإرهاب... والدفع بمشروعات إقليمية عربية فرعية (مجلس التعاون الخليجي، الوحدة المغاربية) للتجاوز مع المشروعات الجماعية سواء العربية (الجامعة العربية) أو الإسلامية (منظمة المؤتمر الإسلامي).

ج- اقترن الانتقال من الحرب الباردة الأيديولوجية إلى الأحادية القطبية الأمريكية (في إطار من قوى إقليمية صاعدة) في ظل العولمة، بالانتقال من الحل العسكري الرسمي إلى التسويات السياسية الرسمية، مع استمرار أزمات المقاومة الشعبية السلمية والعسكرية وخاصة من الجانب الفلسطيني.

د- ازدادت التدخلات الخارجية بعد نهاية الحرب الباردة وفي ظل ما يسمى عمليات السلام العربية الإسرائيلية، بأدوات القوة الصلدة المغلفة بأدوات القوة الناعمة، فكان العدوان على العراق ٢٠٠٣ باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان، وكانت الثورات المضادة باسم الحرب على الإرهاب. وجميعها أدوات أبرزت صعود وزن الأبعاد الدينية الثقافية في الاستراتيجيات الغربية تجاه المنطقة، على نحو دعم من الانقسامات الداخلية، وقاد المنطقة بالتدريج إلى انفجار الفتن تحت تأثير قوى الثورات المضادة الداخلية والإقليمية، وجميعها أمور كانت تصب في مصلحة الاستراتيجية الإسرائيلية (بلقنة المنطقة العربية) وتحويل الصراع معها إلى واحد من الصراعات وليس الصراع الأساسي.

هـ- تنامت وتدعمت علاقات إسرائيل مع القوى الغربية الكبرى (بريطانيا ثم فرنسا ثم الولايات المتحدة)، وامتدت أيضاً إلى القوى الإقليمية الصاعدة التي ساندت القضية الفلسطينية (الصين والهند بصفة خاصة)، كما اتسعت نطاقات علاقاتها عبر الإقليمية في آسيا وأفريقيا. وجميع هذه العلاقات كانت مصدر دعم للقوة العسكرية والقوة الاقتصادية الإسرائيلية، ناهيك عن الدبلوماسية.

و- الأدوات العسكرية والاقتصادية، بل والثقافية، للتدخلات الخارجية ازداد تأثيرها من حيث تحقيق انصياع النظم العربية للخارج، وهو الأمر الذي صب في صالح إسرائيل بالدرجة الأولى، ففقدان الشرعية الداخلية لهذه النظم، خاصة بعد الثورات العربية، دفعها إلى البحث عن الشرعية من الخارج وإلى التعلق بقطاره والتدريج بمقولات الحفاظ على الاستقرار والمصالح الوطنية ورفع مبررات الواقعية والبرجماتية والمرونة والاعتدال. وجميعها قادت بالتدريج إلى القبول ثم الاعتراف ثم التحالف مع إسرائيل. بل اعتبار إسرائيل

وسيطاً لا غنى عنه لدى القوى الغربية الكبرى لتعبئة الدعم لاستمرار الأنظمة العربية المتكلسة. ولعل هذا يتجسد الآن في الهزلة الخليجية للتطبيع مع إسرائيل، وخاصة من جانب السعودية والإمارات والبحرين. ي- الأهم والأخطر هو تغييب الوعي العربي وخاصة لدى جيل "السلام مع إسرائيل"، عن حقيقة الصراع مع إسرائيل ومحورته بالنسبة لمستقبل أمن وتنمية واستقلال الشعوب العربية. وهي العملية التي شاركت فيها القوى الخارجية وإسرائيل والنظم العربية، ووظفت كل الأدوات الدينية والفكرية والثقافية لتحقيق الهدف، أي الانتقال من السلام الرسمي إلى التطبيع الكامل. الأمر الذي أصاب الرؤية عن "العدو" بالضبابية تحت قذائف ما يسمى بتحديد الخطاب الديني، الذي لم يكن تجديداً مطلوباً من أجل الإحياء والصحة والحرية والعدالة والدفاع عن فلسطين والقدس، بقدر ما كان تجديداً مطلوباً من النظم لترسيخ مفاهيم جديدة (استسلامية دفاعية) عن الجهاد والسلام والتسامح، بذريعة مقاومة التطرف والإرهاب؛ حيث أضحت معارضة الظلم والفساد والاستبداد والمقاومة ضد العدوان والاستيطان إرهاباً يتساوى مع أشكال العنف المرفوض شرعاً وسياسياً.

وأخيراً، لا يمكن أن نسقط من منظومة علاقة إسرائيل بالنظام الدولي، أن سياسات وممارسات إسرائيل (بالأساس وليس وجودها) واجهت انتقادات ومعارضات منظمة مدنية وشعبية غربية على مستويات متعددة. وركزت معظمها على انتهاكات حقوق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وانتهاكات حقوقه الإنسانية. ولقد طغت أحياناً في هذه التحركات الأبعاد الإنسانية على الأبعاد السياسية للقضية الفلسطينية باعتبارها قضية شعب وأرض ودولة.

ثالثاً- محصلة الحروب الحضارية على الأمة (١٩٩١ - ٢٠١٦): من العدو؟ إشكالية العلاقة بين الداخلي

والخارجي.

بقدر ما كشفت حروب ١٩٩١ (المسماة تحرير الكويت من العدوان العراقي)، وحروب ٢٠٠١ و٢٠٠٣ (المسماة تحرير أفغانستان والعراق من الاستبداد)، والحرب العالمية على الإرهاب، كشفت عن حجم وطبيعة الجديد في التدخلات الخارجية -أي عودة الاستعمار الفكري المدعوم بأدوات دينية وثقافية- خلال مفصل جديد من تحولات النظام العالمي، والنظم الإقليمية في العالم العربي والعالم الإسلامي (١٩٩١ - ٢٠١١)، بقدر ما كشفت الثورات العربية والثورات المضادة عليها تحت ذريعة الحرب على الإرهاب كيف أن المشروع الصهيوني وإسرائيل لم يعودا يلعبان بأدواتهما فقط، ولكن أضحت النظم العربية المتكلسة تحت وطأة العسكر والنظم الملكية التقليدية أدوات صريحة في اللعبة ضد حرية وكرامة وأمن شعوب المنطقة واستقلال أوطانها، أدوات متحالفة مع إسرائيل ومع النظام العالمي المهيمن حفاظاً على وجودها وبقائها بأي ثمن. ومن ثم كان المفصل التاريخي الراهن في بداية القرن الواحد والعشرين كاشفاً عن جديد على مستويين متحاضنين:

الأول- الهجمة الحضارية من الخارج أضحت بأدوات داخلية بالأساس، تلعب إسرائيل دوراً صريحاً فيها من ناحية، مع صعود وانكشاف المعايير المزدوجة والنفاق العالمي فيما يتعلق بحقوق الإنسان والحريات ورفض التطرف والعنصرية والإرهاب من ناحية أخرى.

الثاني- أدت عودة الاحتلال العسكري الخارجي، سواء في العراق وأفغانستان أو تحت اسم التحالف الدولي ضد الإرهاب (منذ ٢٠١٤)، إلى توظيف الانقسامات العربية في كافة الأوطان العربية على نحو غير مسبوق من حيث العمق والاتساع والتزامن.

فلم يكن الاستقطاب السني-الشيوعي، والعربي-الكردي، الذي ألقى بثقله على أوضاع العراق في ظل الاحتلال وبعد انسحابه جزئياً، إلا رأس جبل الجليد العائم الذي سرعان ما طفى بقوة وسرعة مدمرة في ظل الثورات المضادة ضد الثورات الشعبية. ولم يكن هناك أفضل للنظم المتكلسة وحلفائها الخارجيين حماية للوضع القائم ومنعاً للتغيير في المنطقة من تصعيد أداة الاستقطاب والانقسام وصولاً إلى حالة الاقتتال الداخلي في شكل طائفي أو عرقي، ولم يكن هناك أفضل من ورقة الحرب على الإرهاب لتندس وتختلط وتؤثر في جميع هذه الأشكال من الفرقة التي نالت من قدرة القوى الثورية الوطنية -إسلامية كانت أو علمانية- على الاستمرار في مشروعها. وكانت إسرائيل هي الراعية الأولى، منذ السبعينيات، لاتهامات الإرهاب التي ألصقتها ابتداءً بكل حركات المقاومة ضدها خارج أرض فلسطين.

ولم تكن هذه التربة من الصراعات والانقسامات الراهنة وليدة التدخل الخارجي والتواطؤ الداخلي الانقلابي على الثورات فقط، ولكن كانت كاشفة عن جذور ممتدة لمصادر لهذه الصراعات لم تنجح، أو لم ترغب، نظم الدول حديثة الاستقلال وريثة الاستعمار في إدارتها على نحو يُنشئ دولاً مدنية حديثة لا تمحي الخصوصيات القومية والدينية والثقافية، ولكن تديرها وفق نظام تعددي تداولي ديمقراطي إنساني، يحول التعدد والتنوع إلى مصدر ثراء وليس أن يقمعه أو يكبته أو يستأصله أو يضطهد بعضه لصالح البعض الآخر، كما حدث طيلة ما يقرب من نصف قرن حين آمنت "النظم العسكرية" أو النظم التقليدية أن الاستبداد هو المبرر لما يسمى الحفاظ على تماسك الوطن أو الاستقلال في مواجهة المؤامرات الخارجية.

وحيث اندلعت الثورات الشعبية ضد هذه النظم، بعد تاريخ حافل من المعارضة الداخلية، فإن النظم المترنحة التي لا تجرؤ على القول -صراحة- إنها ضد الشعوب وضد الثورات، عملت على التجمل بثورات أو حروب بديلة (هجينة ومفتعلة). كما أن القوة الخارجية، بعد أن "خلقت" الإرهاب، أضحت تدير الثورات المضادة -أي الحرب على الإرهاب- عن بُعد هذه المرة؛ أي بدون الطرق التقليدية الاستعمارية التي تقوم على الالتحام العسكري على الأرض، فتدير هذه القوة الخارجية عمليات نظيفة؛ أي بدون خسائر لها.

فإن النظم العميلة والمترنحة التي قامت ضدها الثورات هي التي تقاوم الآن؛ تقاوم "كيانات مسلحة" قفزت فجأة إلى قلب الساحة (تدبّر في آثار صعود داعش ومسارها) لتسحب البساط عنوة ويعنف عن الثورات السلمية، وتشارك في إجهاضها. وتعاقب هذه النظم الشعوب التي ثارت، تعاقبها على خطيئة الثورة وخطيئة الصعود الإسلامي الذي صاحبها. وإذا كان اندلاع الثورات قد دشّن ما كان متوقّعا من تدخلات خارجية ضدها، وإذا كانت هذه الثورات قد اختلفت من حيث الاندلاع والمسار والمآلات السريعة، إلا أنها جميعها اشرتكت في نفس هذه القواسم السابق الإشارة إليها.

على نحو كشف عن منظومة تهديدات داخلية وخارجية صبت في صالح إسرائيل جملة وتفصيلاً، تهديدات معضلة الحرب على الإرهاب أم الحرب على الديمقراطية والاستقلال أم على الإسلامية والإسلام؟

** تهديدات التدخلات من القوى الإقليمية: الحوار الحضاري الإيراني والتركي مصدر تهديد أم مساندة؟ في مواجهة من: إسرائيل أم الثورات المضادة؟

** تهديدات نخط التدخلات الخارجية، فلقد اتسمت التدخلات الخارجية الغربية بالمناورة بين الثورات والثورات المضادة، تقديم المنشطات للنظم المتكلسة أو منعها أو المناورة بها بالقدر الذي يمنع من الانهيار السريع لهذه النظم قبل ترتيب الأوضاع الجديدة في المنطقة برمتها على ضوء نتائج ما يسمى الجولة الثالثة من الحرب العالمية على الإرهاب. وهي الحرب التي تدور بقدرات وموارد دول المنطقة دون تدخل عسكري كبير مباشر من الغرب (عدا روسيا)، وذلك

تنفيذا لتصور مفاده: اتركوهم لأنفسهم يستنزفوا بعضهم البعض ويدمروا قدرات بعضهم البعض طالما يظل الأمر محكوماً ولا تمتد آثار الفوضى إلى قلاع الرخاء والأمن الأوروبية والأمريكية، فكل هذا يقود إلى تآكل قدرة النظم الحاكمة على الاستمرار في مواجهة إسرائيل، ومن ثم استدعاء الصور والمدرجات عن "الواقعية والبرجماتية" التي تفرض قبولها والتعاون معها بل والتحالف معها. أي الرضوخ لضغط الأمر الواقع الذي يفرض -حفاظاً على النظم المتهاوية- تغيير "العدو".

** تهديدات الصبغة الطائفية الفجة والمعلنة بدون حياء، سواء في سوريا أو العراق أو اليمن، والصبغة الانقلابية العسكرية الأكثر فحاحة (التي تجمع بين صبغات أخرى)، سواء في مصر وليبيا. وجميع هذه الصبغات الطائفية مع العسكرة الشديدة تدفع قوى الانفصال لتتطل برؤوسها سواء القومية (أكراد سوريا والعراق) أو القبلية (اليمن) أو المذهبية (العراق) أو القبلية (ليبيا).

** تهديدات استهداف "الإسلامية الوطنية الديمقراطية السلمية" كمكون مجتمعي أساسي، وأزمة المشروع الحضاري الإسلامي للتغيير. فإن التحول في مسارات الثورات من الثورات المضادة إلى الحرب على الإرهاب لم يستهدف الديمقراطية والاستقلال فقط ولكن استهدف المكون الإسلامي الحضاري "الثوري" الوطني الديمقراطي ووصمه بالإرهاب قدر وضم التنظيمات العسكرية المتطرفة الملتحفة بالإسلام وبدون تمييز.

وفي المقابل أضحى من أكبر التهديدات لمستقبل الديمقراطية هو انكشاف تحالف العلمانية والنظم العسكرية من جديد، في مواجهة القوى الإسلامية، السلمية منها أو العنيفة دون تمييز. على نحو دفع روافد من النخب العلمانية - وخاصة اليسارية والناصرية والقومية- إلى السكوت العلني عن انخيازات النظم القائمة -وخاصة في مصر- نحو التحالف الصريح والمعلن مع إسرائيل والسكوت على تصفية القضية.

** تهديدات التباس تحديد العدو على الجميع، فلا رضاء عام وعلى نحو يقود لتفاقم الانقسامات الداخلية والإقليمية: من العدو، إسرائيل أم إيران أم الإرهاب أم الإسلام السياسي أم القوى الاستعمارية الكبرى في أثنائها الجديدة؟ ومن ثم، فإن سؤالاً مركباً آخر أخذ يتصاعد بدوره: هل العدو خارجي فقط، أم داخلي وإقليمي؟ ماذا عن الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والاقتصادي والخلل القيم والأخلاقي؟

إلى متى يظل حشد النظم المتكلسة لشعوب هذه الأمة في مواجهة عدو خارجي فقط في حين أن "العدو أضحى في الداخل" وهو الذي يُمكن لهذا الخارجي، بل وأضحى حليفاً للعدو الخارجي وبحول دون التصدي له بنجاح بل ويحكم على كل محاولات التصدي بالفشل والإجهاد؟ ورغم تكرار التبريرات بأن الأوطان تتعرض لمؤامرة خارجية، فإن النظم المستبدة التي تقود الثورات المضادة لا تتحرك إلا ضد الإرهاب "الإسلامي" بل تحول كل قوى المعارضة لها إلى إرهاب متناسية كل عدو خارجي... الأمر الذي ازداد معه الالتباس والغموض في تحديد العدو، وهذا مكمّن فهم الاقتتال الداخلي وعبر حدود الأوطان الآن: هل هو إرهاب داعش؟ هل هو الفوضى والفراغ الناجمتان عن الثورات والتي أعطت الفرصة لداعش؟ هل هي إيران أم المشروع الطائفي الشيعي في مواجهة السنة في العراق وسوريا واليمن في ظل غياب "مشروع سني أو مشروع عربي جامع"؟ هل هو نظم العسكر المتكلسة سواء في سوريا الأسد أو مصر السيسي أو اليمن صالح أو ليبيا حفتر التي تقاتل من أجل بقائها بذريعة قيادة الحرب على الإرهاب، سواء كان داعش أو جبهة النصرة أو فصائل ثوار ليبيا أو الإخوان (فحقيبة الإرهاب اتسعت لتضم كافة المعارضين من الحركات الإسلامية بدون تمييز واجب بين السلمي منها أو المعارضة المسلحة أو الإرهابي التكفيري)؟ هل هو النظم الخليجية التقليدية البترولية الموسومة برعاية "جذور الإرهاب الفكرية السنية المتطرفة"؟ هل هو المشروع التركي العثماني الجديد الذي يريد

السيطرة على المنطقة؟ وأخيراً هل هي المؤامرة الأمريكية العالمية الصهيونية لتقسيم المنطقة؟ هل هو مشروع بوتين لروسيا القوية الصاعدة في مواجهة الغرب من جديد؟

تتعدد الاتهامات وتعدد الإجابات بتعدد الأطراف المتقاتلة والمتصادمة بقدر تصادم مصالحها الضيقة الطائفية، المذهبية، القومية أو السياسية الاستبدادية، والحاضر الغائب في كل هذه الشبكة: إسرائيل والمشروع الصهيوني. لم يعد يذكرنا بمشروعها وامتداداته إلا توسعها المستمر الاستيطاني في الضفة الغربية، عدوانها المتكرر الوحشي على غزة والقدس وسمود غزة وانتفاضة الأقصى الثالثة في مواجهة سياسات التهويد السافرة، وفي حين تتواري الحكومات العربية عن المواجهة.

وفي حين تريد إسرائيل أن تبدو ظاهرياً كمرقب للثورات والثورات المضادة، إلا أنها في حقيقة الأمر هي جزء عضوي من هذه الثورات المضادة سواء بطريقة مباشرة كما يتضح من التحالف العضوي بين إسرائيل ونظام السيسي، أو بطريقة غير مباشرة كما يتضح من أنماط التدخلات المختلفة في حالات الاقتتال الأهلي والصراعات بين المشروعات الإقليمية المتنافسة حول المنطقة.

وأخيراً، وفي مواجهة هذه المحصلة لمائة عام بعد وعد بلفور فإن الاستجابات العربية الإسلامية والمقاومة الحضارية الشاملة لم تنقطع أشكالها وأدواتها، وإن تعددت درجات الفشل أو النجاح. ويجب استدعاء ذاكرة هذه المقاومة أيضاً وأشكالها الراهنة، فمهما وهن ضوؤها مقابل ما وصلت إليه الغطرسة الإسرائيلية الآن والمساندة الخارجية الرسمية لها، فهي تمثل خمائر للأمل تنمو وتتسع^٦. (ولذا فللحديث بقية عن استراتيجيات المقاومة المطلوبة داخلياً وإقليمياً وعالمياً).

^٦ - نظر على سبيل المثال :

- ملف العدد "تعاضد أشكال المقاومة الحضارية" في العدد الخامس فصلية قضايا ونظرات، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، أبريل ٢٠١٧)، متاح على الرابط التالي: <https://goo.gl/kVFAEV>

- نادية مصطفى، الهجمة الحضارية على الأمة وأنماط المقاومة، مرجع سابق، ص ص ٦٨-٧٢